النص والكتب المقدسة
(كيفيات الفهم وطرق الإثبات)

حاتم إسماعيل

إن من البديهي أن أية ظاهرة من الظواهر لا يمكن فهمها والتعامل معها، من دون إدراك حقيقتها، ومنشئها، وغاياتها.

وفهم الظاهرة موقوف أولا وبالذات على معاينتها، ومراقبتها بوعي وانتباه تامين، أو بالحكاية عنها من خلال المخبرين، والقرائن الحافة بالحدث حين وقوعه.

والظاهرة الاجتماعية على وجه الخصوص، قد تختلف إدراكاتها باختلاف المراقبين لها، نظرا لاختلاف مستوياتهم الثقافية، ومدى إحاطتهم بظروف نشوئها، وتمكنها في المجتمع، كما تختلف باختلاف النظرة التي ينطلق منها المراقب ليبحث الظاهرة المدروسة.

كما أن الخلفيات الثقافية التي ينطلق الباحث منها ببحثه لفهم الظاهرة تلعب دورا مهما وحساسا، في تحصيل النتيجة التي يرجوها من دراسته تلك.

من هنا، لا بد في قراءة أي نص من النصوص، والدخول إليه، من ملاحظة لغة الكاتب، ومقدار تسلطه عليها، ومدى ثقافته ومعرفته في الموضوع الذي يكتب فيه، بالإضافة إلى الجهة التي توجه إليها في هذا النص، والبيئة التاريخية الاجتماعية التي أنشئ النص فيها. كل ذلك يؤثر تأثيرا جوهريا في فهم النص ، والاستفادة منه ، والتعامل معه .

قراءة النص:

من نافلة القول: ان التعامل مع أي نص من النصوص يبتدئ بقراءته، ومحاولة التعرف على مفرداته وتراكيبه، سعيا للحصول على مقاربة معانيه وغاياته، التي يريدها الكاتب من وراء كتابته.

ويستوي في هذه القراءة الباحث والفضولي، والمثقف والمتخصص في العلم او الفن الذي سيق النص على وفق قواعده وأسسه.

وفي هذه المرحلة تتفاوت أفهام القراء واستنتاجاتهم، تبعا لاختلاف مستوياتهم الثقافية، ومدى معرفتهم بموضوع النص المقروء.

إن مجرد المعرفة بلغة النص لا تؤدي بالضرورة إلى فهم معانيه، واستنباط غاياته التي كتب لأجلها، ما لم تنضم إليها عوامل أخرى:

منها: مدى إحاطة القارئ بالعلم أو القضية التي يبحث النص فيها، فان معرفته بذلك ستجعله، ـ دون شك ـ قادرا على استيعاب الفكرة التي سيق النص لأجلها، بصورة أعمق، وأكثر مقاربة لها، وتعاملا معها.

ومنها: مدى إحاطته بالظروف التي رافقت إنشاء النص، من تاريخية، واجتماعية، ونفسية، وغير ذلك مما له تأثير على مدى واقعية ومصداقية النص المنشأ.

ومنها: معرفة الكاتب، ومدى تسلطه ومعرفته بالموضوع الذي يكتب فيه، إضافة إلى مدى معرفته باللغة التي يتحدث فيها، وقدرته على بيان غايته ومراده، إذ ليس كل من يتكلم بلسان قادرا على إنشاء مطالبه، على نحو يمكن الركون إليه والتسليم به، خصوصا إذا كان موضوعه ذا طابع تعليمي أو نحوه.

ان لمعرفة الكاتب دورا محوريا في مدى قبول المعلومات التي يطلقها، أو رفضها، اذ مع عدم معرفته لا يؤمن ان ينسب النص إلى غير صاحبه، وقد رأينا كثيرا من النماذج في التاريخ من يكتبون وينسبون ما كتبوه إلى أسماء معروفة ومشهورة، لأسباب مختلفة.

وعلى تقدير صحة نسبة النص إلى صاحبه، فلا يؤمن من التلاعب به زيادة ونقيصة، من قبل من روجه وأشاعه، أو من وقع في يده على أقل تقدير. وهذا يفترض شروطا أخرى لإثبات الاستناد.

النص كوثيقة:

لا شك أن النص يشكل وثيقة هامة وأساسية في فهم الظاهرة التي يعالجها، وهو يعد مفتاحا لمعرفة الحقبة التي أنشىء فيها، خصوصا إذا كان يرجع إلى زمان مختلف عن زمان القارئ والباحث.

تكتسب الوثيقة أهميتها وقيمتها بمقدار ملامستها للواقع والحقيقة، ومدى حضورها واطلاعها على مجريات الواقع. من هنا، فكلما كان الكاتب أقرب إلى زمن الواقعة كانت قيمتها أعلى، واعتبارها أقوى. فإذا كان الكاتب نفس مؤسس الفكرة ومبدعها كانت في قمة درجات الاعتبار من جهة إمكان التعامل معها ونقدها.

إن النصوص الدينية ، ولما كانت متوجهة إلى الاجتماع الإنساني بشكل عام فهي إضافة إلى ربطها الإنسان بالمبدأ والمصير، انها تفتح له علاقة بعالم الغيب، فهي تهدف كذلك إلى تنظيم حياته الاجتماعية على هذه الأرض، وترتيب أمور معاشه على كافة المستويات، قال تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1] .

وما دام الدين ـ أي دين ـ يهدف الى تكوين منظومة اجتماعية واحدة، يسود فيها العدل، والمساواة، فلا بد ـ عند نقد الظاهرة الدينية ـ من الرجوع الى محورها، وهو النبي المبشر بها، مضافا الى التعاليم والشرائع التي بثها بين الناس، لملاحظة ما اذا كانت تفي بالغاية التي يسعى الانسان لتحقيقها في هذه الحياة.

وما دام المؤسس مقيدا بحدود الزمان والمكان اللذين عاش فيهما بحيث لا يمكن للبعيد عن ظروف دعوته زمانا ومكانا، كان من الضروري الرجوع الى الوثائق التاريخية والتعليمية التي تركها.

وفي هذه المرحلة يبرز عنصر الإثبات والتوثيق الى الواجهة، ويتخذ موقعه المهم والخطير في امكان إثبات صدق الدعوى وعدمه.

بعد مرحلة الإثبات تبدأ مرحلة فهم النص والتعامل معه، وهنا لا ينبغي الاشكال في أن لخلفيات القارئ الذهنية والثقافية دورا بارزا في توجيه مداليل النص، بما يتوافق مع هذه الخلفيات والمسلمات، التي تؤدي لا محالة الى اختلاف الفهم والتفسير.

فلا بد من تمحيص هذه الخلفيات، وفرز بعضها عن بعض، ليكون تفسير النص أقرب ما يكون

الى الموضوعية، وأبعد ما يكون عن الذاتية، فإن الكاتب قد أبرز المعاني التي يريد بيانها بواسطة ألفاظه وعباراته، فإذا كان التعامل معه بالذهنية الذاتية، وخلفيات المفسر فقد النص أصالته وغايته، كما لا يخفى.

من هنا، لا بد للخوض في تفسير النص الديني من محاولة البحث عن خلفيات الكاتب نفسه، والغاية التي ساق النص لبيانها وإثباتها.

الخلفيات والمسلمات:

لا شك أن الإنسان، أي إنسان، يختزن في ذهنه كمّا هائلا من المسلمات التي يحاكم الأشياء والقضايا التي ترد إليه على أساسها، وهي تتفاوت بتفاوت القضايا التي يتعامل معها، كما انها تختلف من شخص لآخر، ومن مجموعة من الناس لمجموعة أخرى.

ومن هذه المسلمات ما يشترك فيه النوع الإنساني بمختلف فئاته وأفراده، لنشوئها معه منذ بداية تكوينه وانضوائه تحت النوع، بل إن ما يميز الأنواع بعضها عن بعض هو هذه المشتركات التي يشترك فيها أفراد النوع الواحد، ويفترق بها عن سائر الأنواع الأخرى.

ومعنى ذلك، أن من المسلمات ما هو ملازم لإنسانية الإنسان، وهو ما يعبر عنه بالفطرة أو الأوليات، ومنها ما يحصل عليه بالكسب من خارج ذاته، نتيجة عامل التربية، أو البيئة، أو الثقافة، أو نحو ذلك.

والمسلمات الفطرية أو الأوليات لكونها تشكل الأساس المتين في المشتركات الإنسانية، تصلح لتكون الركيزة الأولى في محاولة فهم النص الديني فهما موضوعيا، يمكنه أن يقرب الباحث أكثر من المضمون الديني، ويبعده عن احتواء هذا النص وأسره لخلفياته ومسلماته المكتسبة؛ لأن أي دين من الأديان يفترض أنه الدين الحق، والحل الأمثل لمشاكل الإنسان وقضاياه العالقة. ولما كان الدين من حيث طبيعته، ومع غض النظر عما شابه من تدخلات الناس، ناظرا إلى جميع الناس، فإنه يفترض أن يحاكي سائر طموحاتهم، محاولا الوصول إلى داخل ذاتهم وكيانهم.

ثمة مسلمات أخرى مكتسبة، تصلح لتكون أرضية عامة للتعامل مع النصوص الدينية، التي تنطلق من مشتركات عامة أو خاصة، بين فئات دينية متفاوتة، يمكن على أساسها تفسير الظاهرة أو النص الديني في ما بين هذه الفئات، وهذا ينطبق على الأديان التوحيدية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، إذ هي تنطلق من الدعوة الإبراهيمية، فترتكز في بنائها الذاتي على توحيد إبراهيم (ع)، والوعد والعهد الإلهي له.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾( )، وقال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾( ).

وفي الكتاب المقدس: "وقال الرب لابرام (إبراهيم) اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي اريك، فأجعلك امة عظيمة وأباركك وتكون بركة، وأبارك مباركيك ولاعنك العنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض"(٤).

فلا بد من محاولة معرفة التوحيد الإبراهيمي، الذي تستند إليه الأديان الثلاثة في إقامة بنيانها وركائزها، استنادا إلى الأسس المشتركة في ما بينها من فطريات، ومضمون كتابي، وتأييد تاريخي، إن أمكن ذلك.

الكتب الثلاثة:

لا شك ان الكتب الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، تشكل الركائز الأساسية لفهم الأديان التوحيدية الثلاثة، بعد عدم إمكان التواصل المباشر مع الأنبياء الذين أنزلت إليهم عليهم السلام، فبقيت هذه الكتب هي السبيل الوحيد لإمكان الوصول الى حقائق الدعوة المبشر بها من قبل هؤلاء الأنبياء العظام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الا أن هذه الكتب الثلاثة ليست على قدر واحد من المقبولية والاعتبار والقداسة، بناء على ما تقدم من مقاييس قراءة النص وفهمه، من خلال ما ذكره أتباع هذه الديانات أنفسهم، مع ملاحظة ان المسلمين يؤمنون من حيث المبدأ، بقداسة الكتب الثلاثة، استنادا لقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير﴾(٥).

وأما المسيحيون فلا يؤمنون بالقرآن الكريم، وإنما يقدسون العهد الجديد والعهد القديم، بخلاف اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالعهد القديم وحده.

إن الكتاب المقدس _ بعهديه القديم والجديد _ عاجز عن الثبات أمام النقد العلمي والموضوعي، لافتقاده مجمل شرائط الاعتبار والوثاقة، إذ هو _ وفي مختلف أسفاره وكتبه _ غير مستند الى الأنبياء أصحاب الدعوة الأصليين، فلا التوراة هي التي جاء بها موسى (ع)، ولا الإنجيل منسوب إلى المسيح(ع)، وهذا ما يقر به علماء الكتاب المقدس أنفسهم.

بالإضافة إلى ذلك، فهي كلها مهملة التوقيع والتاريخ، اذ لم يتبين تاريخ كتابتها على وجه الدقة، ليعلم من خلال ذلك ما اذا كانت معاصرة لصاحب الدعوة ام غير معاصرة.

بل يمكن القول على وجه الإجمال، إن عدم معاصرتها معلوم عند التأمل والبحث، وهذا يضعف، دون شك، من درجة اعتبارها، وصدق حكايتها عن واقع الدعوة التي تنتسب إليها، خصوصا وان المخطوطات الكتابية ترجع في أحسن الحالات إلى أواسط القرن الرابع الميلادي، مما يفقدها حلقة الاتصال بصاحب الدعوة بشكل مباشر ومحسوس(٦).

فإذا ضممنا إلى ما تقدم، أن الأناجيل وأسفار الكتاب المقدس عموما مهملة التوقيع، فإن كاتبها أو كتابها غير معروفين معرفة دقيقة، زاد ذلك في إشكالية اعتبارها؛ لأن مجرد انتسابها إلى أشخاص معينين، عبر الحدس الخالص، من دون توثيق موضوعي، وإثبات علمي يصحح الاستناد اليها، لا يرفع من قيمته، ولا يحل شيئا من المشكلة(٧).

وإذا تجاوزنا هذه المشكلة، وقبلنا صحة انتسابها _ فرضا ـ إلى أشخاص بعينهم، واجهتنا إشكالية أخرى لا تقل عن هذه المشكلة تعقيدا، وهي كثرة التلاعب والتحريف زيادة ونقيصة في هذه الكتب عبر التاريخ، وفي ذلك يقول الآباء اليسوعيون: "ومن الواضح أن ما ادخله النساخ من التبديل على مر القرون تراكم بعضه على بعضه الآخر، فكان النص الذي وصل آخر الأمر الى عهد الطباعة مثقلا بمختلف ألوان التبديل ظهرت في عدد كبير من القراءات.

والمثال الأعلى الذي يهدف إليه علم نقد النصوص، هو أن تمحص هذه الوثائق المختلفة لكي يقيم نصا يكون اقرب ما يمكن من النص الأول، ولا يرجى في حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه"(٨).

وأما العهد القديم فأمره أوضح من أن يخفى، فان التوراة ـ أي أسفار موسى الخمسة ـ تشكل الركيزة الأساسية، والمستند الأصلي للعقائد اليهودية والمسيحية، إلا أنها لم تسلم من النقد والتزييف في كثير من مفرداتها وقضاياها، فبعد التسالم على أنها هي التي جاء بها موسى (ع) طيلة قرون متمادية، بدأت الشكوك تحوم حولها ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي، حين تنبه كاتب بروتستانتي اسمه "كاستادت" إلى أن من غير الممكن أن يكتب موسى (ع) تاريخ وفاته بنفسه، وكان ذلك فاتحة البحث والتشكيك في التوراة وكاتبها(٩).

يضاف إلى ذلك وجود فوارق كبيرة، قد تصل إلى حد التعارض وعدم إمكان التوفيق بين النسخة العبرانية للتوراة وبين النسخة السامرية.

وهنا لا بد من تسجيل نقطة في صالح القرآن الكريم الذي تحدث عن هذا التلاعب وأمثاله في الكتاب المقدس قبل عشرة قرون من كاستادت دون أن يعيره علماء الأديان أية أهمية.

وأما القرآن الكريم فهو الكتاب الوحيد الذي لم تستطع يد التحريف والتلاعب أن تناله، لأنه _واستنادا إلى المقاييس المتقدمة ـ قد وصل إلينا متواترا، تلقاه المسلمون جيلا بعد جيل من زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد بلغ اهتمام الرسول بحفظه وصيانته، أن حرص على أن

يحفظه كل مسلم عن ظهر قلب، ويحدثنا التاريخ انه في حرب اليمامة وحدها التي جرت بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب قد قتل أربعمائة من قراء القرآن. وهذا الانتشار والسعة يشكل بذاته حاجزا ومانعا أمام المتلاعبين عن أن يحرفوا فيه ولو كلمة واحدة.

وهذا يعني أن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يصمد أمام التيارات الضالة والمنحرفة، التي تحاول دائما التلاعب بالقيم الإنسانية والدينية، من خلال بقاء مصادره الأصلية التي استند اليها، كما عمل المسلمون جاهدين على تقعيد قواعد علمية لإثبات السنة النبوية الشريفة، وفرز صحيحها لأخذه والعمل به، من سقيمها لطرحه والتحرز منه.

مستند العقائد الدينية:

إلا أن ما تقدم لا يعني إغلاق باب الفهم، واستخلاص العقائد الدينية الصحيحة من الكتاب المقدس، وعلى الخصوص من العهد الجديد.

ففي الديانة المسيحية يعتبر السيد المسيح (ع) محور الدعوة وقطب رحاها، وقد افترض المسيحيون انه ذو طبيعة إلهية كاملة، تجسد وتنزل الى عالم الإنسان، ليمكنه أن يتعامل معه، لعله يرتفع به الى عالم الألوهية، ولا يتم ذلك الا عبر صلبه وموته وقيامته من الأموات، فداء للخطيئة الأصلية التي ابتلي بها الإنسان، منذ وجوده على هذه الأرض.

ومن المعلوم أن هذه العقائد لم ترافق المسيحية منذ نشأتها، وإنما تطورت عبر العصور شيئا فشيئا، بعدما كانت المسيحية في عصورها الأولى جزء لا يتجزأ من الديانة اليهودية، في عقائدها وطقوسها العبادية، حيث كان المسيحيون وخصوصا تلاميذ المسيح ـ يتعبدون مع اليهود في هياكل عبادتهم، ولم يروا أنفسهم منفصلين عن الديانة اليهودية.

إلا أن مدرسة بولس الرسول، ومن تبعه من الوافدين إلى المسيحية من الأمم الوثنية، قد نحوا منحى آخر، في فهم الديانة الجديدة، محاولين فصلها بالمرة عن أساسها الكتابي والإسرائيلي، من دون إلغاء العلاقة الأصلية بين الديانة الجديدة والعهد القديم، الأمر الذي دفع به وبأتباعه الى تأويل نصوص العهد القديم، تأويلات رمزية تتفق مع ما يطمحون إليه.

فمن ناحية لاحظوا أن دعوة السيد المسيح (ع) ترتكز أساسا على نبوءات العهد القديم ووصاياه، وتشريعاته، ومن ناحية أخرى أدركوا أن الالتزام بها يعني عدم دخول احد من غير اليهود في الدين الجديد، نظرا لما تشتمل عليه تلك التشريعات من موانع تقف بوجه الوافدين إليها، والتي أهمها مسألة الختان وإعلائية العنصر الإسرائيلي على غيره من العناصر.

ومن هنا نشأ الطابع التبريري، الذي يفرض نفسه على النصوص في المدرسة البولسية، والتي ارتكزت عليها العقائد المسيحية في ما بعد، فغدت خلفيات المفسر ومسلماته هي الحاكمة على نصوص الكتاب والمتصرفة في مداليله، دون أن تكون النصوص هي المتحكمة في رؤية الداعية وسلوكه ومعتقده.

ومن المفارقات اللافتة والغريبة في الديانة المسيحية، أنها ابتنت في مجمل مسائلها على التعاليم البولسية، ونأت بنفسها عن مقاربة تعاليم السيد المسيح (ع) أو تلاميذه المقربين، مع أن مقتضى المنطق أن يكون مرجع الاعتقادات الأصلية، بل المسائل الفرعية أيضا هو صاحب الدعوة ومؤسسها ووصاياه، إما مباشرة أو بالاستناد إلى تلاميذه المقربين منه، والذين رافقوه وعايشوا مفردات دعوته.

من هنا، نلاحظ ابتعاد المسيحية عن الجوهر الكتابي، فإنها باللجوء إلى الرمزية في تفسير الأحداث، تكون قد أقفلت باب الفهم والتعامل مع النصوص بما لها من دلالات تعبيرية، وحصرته بفئة خاصة جعلت من نفسها أمينا على ما أطلقوا عليه الأسرار الإلهية والكنسية.

وهذا يفسر من ناحية أخرى أن العهد الجديد في جزئه الأكبر والأهم عبارة عن رسائل الرسول بولس، وأما تعاليم السيد المسيح فلم يكن لها حظ إلا بمقدار ثلاث أو أربع صفحات وردت مشتتة في الأناجيل الأربعة.

إلا انه منذ حركة الإصلاح الكنسي في أوروبا عادت روح النقد ومحاولات فهم النصوص المقدسة إلى الواجهة من جديد، وانتهى عصر احتكار قراءتها من قبل الكنيسة.

وفي هذا المجال، نرى كثيرا من الاعترافات التي ذكرت أن المسيحية في جوهرها وحقيقتها ليست تابعة لحركة السيد المسيح، وإنما هي عبارة عن معتقدات ظهرت للعلن تبعا لما يراه أبناء الكنيسة من مصالح، يقول عادل تيودور خوري: "أما هانس كونغ، فيحاول وضع الإسلام في درجة اليهودية المسيحية، تلك الجماعة التي لم تكن تعترف بعد تماما بالتعليم المسيحي حول المسيح الذي طورته نهائيا المجامع المسكونية"[١٠].

وهو إقرار صريح أن العقائد المسيحية عبارة عن اجتهادات اللاهوتيين المسيحيين عبر القرون، وهي بالتالي لا تصلح أن تكون مستندا واقعيا للتعاليم الإلهية؛ لأن الكنيسة كيان بشري واقع تحت الخطأ وسوء الفهم في كثير من محطاتها وتاريخها، وهو ما وقعت فيه بالفعل من خلال منع كثير من البشائر التي كانت الأناجيل منها تربو على الأربعين، ما حرم الإنسانية من كثير من الوثائق التي كان يمكنها إلقاء الضوء على بدايات الدعوة المسيحية وتطورها الفكري واللاهوتي.

يقول عادل خوري في ما يعد تأكيدا لهذه الحقيقة: "فالمسيحية كبنية اجتماعية للعقيدة المسيحية، وفي شكلها كجماعة قانونية معينة، لا يمكن اعتبارها مطلقة. فالمطلق في المسيحية هو

المسيح، وهي النعمة وهو الإيمان، أي أنه في النهاية ليس هناك مطلق إلا الله وحده. والمسيح وحده هو الطريق والحق والحياة. فالمسيحية والكنيسة كبنية قانونية وجماعة مؤمنين عليها أن توجه خطاها بوحي المسيح، وأن تنقي ذاتها كي يشرق فيها وجه المسيح إشراقا يزداد صفاء. هذا يعني أن المسيحية في صورتها الحسية تبقى جماعة تشوبها الخطيئة. ولكنها تسعى حتى تبلغ الى ملء المسيح في آخر الأزمنة"(١١).

وما دامت الكنيسة تحت الخطأ والخطيئة، فلا غرابة إذا قلنا بأنها قد ظلمت الإنسانية عندما نشرت خصوص الأناجيل الأربعة، ومنعت غيرها من الأناجيل والوثائق، فان من الممكن خطأها في نفس هذا الاختيار، ولما لم تصل إلينا تلك الكتب الممنوعة، فلا يمكن معرفة الحقائق الدينية التي بشر بها السيد المسيح (ع) على وجه الدقة؛ ما يعني أن الكنيسة أوقعت نفسها وأتباعها في مأزق كبير، لا يمكنها التخلص منه، وتكون قد حكمت على نفسها بالبطلان والاضمحلال.

وقد أوقعت المسيحية نفسها في مأزق آخر، لا يقل خطورة عن الأول، إذ هي أبطلت مفعول النصوص المقدسة من الأساس، حيث نسبت الى تلاميذ المسيح عدم معرفتهم بحقيقة السيد المسيح ودعوته، ففي قضية الصلب والقيام من القبر، فقد ورد في الإنجيل أن التلاميذ لم يكونوا يعرفون أن المسيح"ينبغي أن يقوم من الأموات"(١٢).

وفي وصف حالة عدم الاعتقاد هذه، يذكر أن مريم المجدلية ورفيقاتها، لما لم يجدن جثة المصلوب "رجعن من القبر وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله، وكانت مريم المجدلية ويونا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن اللواتي قلن هذا للرسل، فتراءى كلامهن لهم كالهذيان ولم يصدقوهن"(١٣).

ولذلك نجده في نهاية المطاف قد توجه إليهم جميعا، "أخيرا ظهر للأحد عشر وهم متكئون، ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم؛ لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام"(١٤).

وبهذا تكون المسيحية قد قطعت كل اتصال لها بالسيد المسيح (ع)، وأوقفت كل ارتباط لها به على مستوى الاتصال المباشر بدعوته وتعاليمه، ما يعني تأسيس دين جديد قائم على تعاليم البشر واجتهاداتهم، من دون أن تكون لها قدرة على مقاربة الوحي الإلهي، أو الاتصال به.

العقائد بقراءة مختلفة:

إن قراءة النص الديني ومحاولة تفسيره، استنادا إلى خلفيات غريبة عن موارده وموضوعه، سوف توقع الباحث في إشكاليات لا حصر لها، وستفرض على النص أمورا ذاتية لا يعرفها. وهذا بخلاف ما إذا نظر إلى النص الديني نظرة مجردة عن ذاتياته، إلا ما يكون ناشئا من أولياته

الفطرية التي يقتضيها كل بحث وقضية، فإن قراءة كهذه ستقارب، بلا شك، المعنى المراد من الكاتب، وستصيب في أكثر الحالات – إن لم نقل كلها – حقيقة المضمون والمعنى.

فإذا أردنا قراءة النص الإنجيلي قراءة مجردة عن الخلفيات البولسية، ولم نحاول أن نقحم فيها ما ليس منها ونفرضه عليها، وجب علينا أن نجري تقويما داخليا، من محاور الدعوة نفسها، لبيان مدى انسجامها مع السياق العام الذي تفترضه الدعوة الإلهية، في إطار الهداية الإنسانية العامة في عمق التاريخ.

وبعبارة أخرى، لما كانت المسيحية تشكل حلقة من حلقات سلسلة الهداية الإلهية للإنسان متمثلة في بني إسرائيل، ومعتمدة في أساسها على كتابات العهد القديم ونبوءاته، كان لا بد من قراءة النصوص المسيحية قراءة متأنية، لملاحظة مدى توافقها مع معطيات العهد القديم، وسنرى أن نتائج هذه القراءة ستختلف عن القراءة الحالية المنطلقة من المفاهيم البولسية للدعوة.

وهنا، لا بد من وضع اليد على المسائل المحورية، والمفاصل الأساسية في الكتب، التي تتحدث عن سيرة السيد المسيح (ع) ومفاصل دعوته، والابتعاد قدر الامكان عن تعاليم الكهنة وتوجيهاتهم، خصوصا أولئك الذين ثبت عدم تلمذهم على السيد المسيح من أمثال بولس الرسول، وفي هذه الحال سيكون استقصاء البحث عن الحقيقة في الأناجيل الأربعة، فإنها ورغم ما لحقها من شوائب وتحريفات، لا تعدم الإشارة والدلالة على بعض الحقائق والتعاليم التي أصدرها السيد المسيح (ع).

فإذا قرأنا قوله في انجيل يوحنا: "وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب، وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله"(١٥). يحق لنا أن نتساءل عن معنى المسيح، وعن معنى ابن الله، إذ ما دام الشك في انطباق العنوانين على يسوع وعدم انطباقهما عليه، كما تقتضيه طبيعة سياق كلام يوحنا، لا بد من أن تكون معاني هذه الكلمات واضحة في ذهن من سيقت إليهم، وليس لها مصدر للمعرفة سوى الكتاب المقدس.

وإلا فلو لم تتضح في ذهن القارئ بالرجوع إلى الكتاب المقدس، ظلت مبهمة، ولم تستطع الثبات أمام تيارات التأويل، مما يؤدي إلى بطلان جميع الدعاوى المتعلقة بصدق هذه الدعوى، وستذهب جهود الباحثين سدى.

وإذا قرأنا في إنجيل لوقا، عن بدايات دعوته، وكيف افتتحها بين اليهود، بقوله: "وجاء الى الناصرة حيث كان قد تربى. ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ، فدفع إليه سفر اشعياء النبي. ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوبا فيه، روح الرب علي لأنه مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة، ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم

وجلس، وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه، فابتدأ يقول لهم انه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم"[١٦]. فانه يحق لنا أن نتساءل هنا أيضا: لماذا ابتدأ دعوته بقراءة ما في سفر اشعياء؟ ولماذا سفر اشعياء بالذات؟ ولماذا هذه الفقرة دون غيرها؟ ما هي العلاقة التي تربط دعوته بدعوة اشعياء؟ وما هي سنة الرب المقبولة؟ ولماذا ختم القراءة عندها؟وهل سنة الرب المقبولة هذه تشير إلى لاهوته أو إلى صلبه وقيامته؟ ثم ما معنى قوله "اليوم قد تم"؟وما معنى التمام فيها؟ وفوق كل ذلك ما معنى كرازته وبشارته؟ وهما تعنيان أولا وبالذات مجرد وعظه وإرشاده، استنادا إلى تعاليم العهد القديم، لقوله (ع): "لا تظنوا اني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى اصغر في ملكوت السماوات"[١٧]. وما مدى توافق هذا الكلام مع دعوة بولس: "لأنه ان كان بالناموس بر فالمسيح إذاً مات بلا سبب"[١٨]، والتي التزم بها المسيحيون بعده، أليست هذه الدعوة ردا صريحا وصارخا على دعوة السيد المسيح نفسه؟ أليست نقضا لكل وصايا الناموس، وإذا كان نقض إحدى الوصايا الصغرى يجعل المرء أصغر في ملكوت السماوات، فكيف بنقض الناموس كله؟

وإذا قرأنا في مختلف محطات الأناجيل الأربعة أن المسيح (ع) كان"يطوف المجامع كلها ويبشر ويعظ باقتراب ملكوت السماوات"، وأضفنا إليها قوله في نهاية حركته، ودعوته، متوجها إلى الله تعالى: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، يسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته"[١٩]، وربطناها بقوله لتلاميذه: "إن لي أمورا كثيرة لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من عند نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية"[٢٠]، فإنه يحق لنا أن نتساءل هنا أيضا: ما هو المراد بان الله تعالى هو الإله الحقيقي وحده، وهل يتوافق ذلك مع عقيدة التثليث؟ وما هو المراد بإكمال العمل الموكل إليه قبل صلبه وقيامته؟ ولماذا كانت وظيفته مجرد الوعظ والكرازة؟ بالإضافة إلى الأعمال الخارجية من شفاء المرضى وإحياء الموتى، من دون أن يكون لها أي بعد تشريعي أو تعليمي قابل للبقاء؟ وإذا كان المسيح غاية الناموس والأنبياء فلماذا لم يقل كل ما يريد لتلاميذه؟ ومن هو روح الحق الموعود؟ وما هي حقيقته وهويته؟ أهو موجود بشري أم غير بشري؟ وهل له علاقة بالملكوت السماوي الذي جاء المسيح ليبشر به؟

مقياس صدق النبوة:

ما دامت الأديان الثلاثة تنهل من معين واحد هو الوحي الإلهي، وتصب في مصب واحد أيضا هو التوحيد الإبراهيمي، فمن الطبيعي أن تتقارب روافدها في إعطاء مادة الحياة، وربطها بالمبدأ الأعلى.

وبناء عليه، فإن تكامل هذه الأديان بعضها مع بعض- وتشابه تعاليمها من حيث المضمون- وإن كانت ربما تتفاوت في ما بينها تبعا للظروف الزمانية والمكانية لكل فرع من هذه الفروع المنتمية الى الشجرة الإبراهيمية الواحدة، هو الأمر الطبيعي الذي يجمع بينها، وما هو غير طبيعي وجود هوة سحيقة بينها على مستوى الأصول، بشكل لا يمكن معه إيجاد القواسم المشتركة بينها، لأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى الشك في وحدة المبدأ المصدر لها.

وفي هذا السياق، ينبغي القول: إن وجود القواسم المشتركة بينها يشكل الأرضية الصلبة والبذرة المنتجة في إمكان التواصل والتكامل بين هذه الأديان.

فإذا أمكن إدراك هذه المشتركات، مع إحراز عدم الأخذ من بعضها، ونسبته إلى الوحي الإلهي، كان في ذلك خير دليل على صدق دعوى النبوة ممن يدعيها.

إننا بمقارنة يسيرة لتاريخ حركة الأنبياء، نجد أن السيد المسيح (ع) قد عاش وترعرع في أوساط بني إسرائيل، ودخل مجامعهم، وسمع مواعظ كهنتهم، ولذلك نراه كثيرا ما يستند في تعاليمه ووصاياه الى الكتاب المقدس بمختلف أسفاره القديمة، ولهذا كانت دعوته خالية من أي بعد تشريعي، يهدف الى تنظيم حياة الناس الاجتماعية والسياسية وغيرها.

وعلى العكس من ذلك، فإن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، لم يتحدث التاريخ انه اختلف إلى معلم، ولا قرأ في الكتب، وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين هذه الحقيقة، مثل قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون﴾( )، وقوله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون﴾[٢٢]، وغير ذلك من الآيات الشريفة.

هذا مع أنه عاش صلى الله عليه وآله بين أهل مكة طوال حياته الشريفة، لم يخرج منها سوى مرات قليلة في تجارة إلى الشام، مما يقتضي أن صدعه بالرسالة - موافقة لما ورد في الوحي القديم- دليل حقيقي على صحة رسالته، وصدق نبوته؛ لأن في ذلك دلالة أكيدة على صدور القرآن الكريم من نفس المصدر الذي صدر منه كل من التوراة والإنجيل، وهو الله تعالى.

إلا أن علماء اللاهوت المسيحي ذهبوا في تفسير هذا التوافق مذهبا مغايرا للحقيقة، نتيجة انطلاقهم من مسلماتهم الخاصة بهم، من دون مراجعة متأنية للتاريخ، ولا فحص واع في نبوءات الكتاب المقدس، فنجد مثلا نوتكر فوغليستر- وفي معرض تحليله لظاهرة النبوة ومقاييسها- يقول: "في عرضنا هذا نتطلع دوما إلى القرآن من جهة، ومن جهة أخرى إلى اليهودية التي جاءت بعد الزمن البيبلي، وذلك لسببين: أولا: أن التاريخ يدلنا على أن محمدا عرف الكتاب المقدس عن طريق التقاليد اليهودية، وأيضا على ما يبدو، وان كان ذلك اقل قدرا، عن طريق التقليد اليهودي المسيحي"(٢٣).

واللافت هنا، أن الكاتب نفسه، يعود، وفي محاولة منه لانتقاص مقام النبي (ص)، يقول: "فإن الذين يدعون الأنبياء الذين تتداول أسفارهم ومما يلفت الانتباه ان محمدا يبدو كأنه لا يعرفهم مطلقا..."(٢٤).

وهذا من الأمور الغريبة حقا..

أما هينرخ أوت، فيقول ببساطة: "إن أتباع النبي محمد، والنبي نفسه، يخالفون في كثير من النقاط، ويناقضون في مطالبتهم بحقيقة معتقدهم محتوى الوحي المسيحي. لذلك فمحمد ليس إلا نبيا كاذبا، وكلمة الوحي التي جاء بها ليست من عند الله"(٢٥).

وهنا تتجلى بوضوح الخلفية الفكرية غير المستندة إلى معطيات الواقع، ولا إلى معطيات الكتاب المقدس نفسه، في حكم هؤلاء القوم على نبوة النبي الأعظم (ص)، ذلك أن مدلول القول الأول موافقة القرآن الكريم للكتاب المقدس، وتطابق أقواله مع أقوال اليهود والمسيحيين، ولا يتوافق مع العقائد المسيحية التي اعتبروها مسلمة لا جدال فيها، وهذا بنفسه يشكل قرينة إثبات، وشاهد صدق للقرآن الكريم، وهو بالتالي شهادة في غير صالح العقائد المسيحية التي يفترض استنادها أساساً إلى معطيات العهد القديم نفسه، مضافا إلى الأناجيل الأربعة، وليس إلى رسائل بولس وسواه.

إلا أن هذه النظرة، لما كانت منطلقة من المسلمة الثقافية، التي حكموا بها على الكتاب المقدس والقرآن الكريم معا، هي التي قادتهم إلى هذه النتائج المباينة للحقيقة، والتي تتضمن شهادة من حيث لا يشعرون على صحة القراءة المسيحية اليهودية للعهد الجديد على نحو العموم.

ومما يؤكد تحكم المسلمة الثقافية عندهم في تفسير الكتاب وعباراته ونصوصه-على عكس ما هو المفترض- من استناد العقيدة إلى المعطيات الكتابية، هو حكم هينرخ أوت على النبي (ص)، بأنه نبي كاذب، لمجرد أنه يخالف في معتقده محتوى الوحي المسيحي، من خلال قراءته لهذا الوحي، دون التأمل في الوحي الكتابي نفسه.

وهكذا، فقد أوقعت المسيحية نفسها في مأزق آخر، وهو الابتعاد عن جوهر الوحي الكتابي بشقيه التوراتي والإنجيلي، وحكمت على نفسها بالبطلان، حيث فقدت المستند والمرجع، الذي يجب الرجوع إليه.

عالمية الدعوة:

إن من الخصائص المشتركة بين الإسلام والمسيحية عالمية الدعوة، وشمولها واستيعابها لجميع الشعوب والأمم، وبهذا تفترقان عن الديانة اليهودية التي كانت موجهة أولا وبالذات إلى بني إسرائيل دون سواهم، فظلت الدعوة التوراتية منحصرة فيهم.

ونلاحظ هنا، أن الإسلام واليهودية قد ظلا منسجمين مع المعطيات الكتابية للنصوص المقدسة عندهما، على خلاف المسيحية، التي فتحت باب الدعوة إلى سائر الأمم، مخالفة بذلك نصوصها المقدسة، والتي دعا إليها السيد المسيح (ع) وتلاميذه من بعده.

فالتوراة وأسفار أنبياء العهد القديم على اختلافها، قد ظلت محافظة على توجيه دعوتها الإيمانية إلى بني إسرائيل، في محاولة تثبيت مقولة "شعب الله المختار" التي يفترضها اليهود لأنفسهم، ولهذا تشدد أحبار اليهود في قبول من يدخل في دينهم من الأمم الأخرى.

وكذلك الأمر في الإسلام، فإن عالمية الدعوة الإسلامية قد جاءت متوافقة مع النص القرآني المبارك ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، وغيرها من الآيات الكريمة، وقد جاءت رسائل النبي (ص) إلى كل من كسرى الفرس وقيصر الروم ونجاشي الحبشة، ودعوتهم للدخول في الإسلام، منسجمة مع النص القرآني، وكذلك كان حال المسلمين بعد انتقاله (ص) إلى الرفيق الأعلى.

وأما المسيحية، فعلى خلاف اليهودية والإسلام، قد جاءت دعوتها وتعاليمها مخالفة ومعارضة لتعاليم السيد المسيح وتلاميذه، الواردة في الأناجيل نفسها.

فقد صرح السيد المسيح (ع)، وفي مناسبات مختلفة "إني لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"[٢٦]، وقد كان منسجما مع دعوته هذه تمام الانسجام حين أرسل تلاميذه الاثني عشر، وأوصاهم قائلا: "إلى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة، وفيما انتم ذاهبون اكرزوا قائلين انه قد اقترب ملكوت السماوات، اشفوا مرضى. طهروا برصا. أقيموا موتى"[٢٧]، كما يشهد له بهذه الرسالة الخاصة في بني إسرائيل كاتب انجيل يوحنا عندما قال: "إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله"[٢٨]. ومن المعلوم تاريخيا أن تلاميذه قد ظلوا ملتزمين بهذه الوصية.

وهذه المسألة بالذات كانت من أهم أسباب الخلاف بينهم وبين الرسول بولس، الذي فتح باب الدعوة إلى غير بني إسرائيل على مصراعيه، حتى أطلق عليه لقب رسول الأمم.

ويمكن لقائل أن يقول: إن عالمية الدعوة المسيحية يمكن أن تجد لها مستندا كتابيا، وهو قول المسيح لتلاميذه، في آخر لقاء له معهم بعد قيامته: "دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به"(٢٩).

إلا أن هذا الاحتمال سرعان ما يزول، بملاحظة الخلاف الناشب بين التلاميذ وبين بولس، فإن من غير المحتمل أن لا يعمل التلاميذ بوصيته، بل ينصبون العداء لبولس من أجل ذلك أيضا.

هذا بالإضافة إلى أن انجيل مرقص الأقدم عهدا من انجيل متى،- بل ان كثيرا من الباحثين في الكتاب المقدس يرونه المرجع الذي استند إليه متى في كتابة إنجيله- يذكر هذه القصة كما يلي: "وقال لهم اذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدن"(٣٠).

وهنا نجد أنفسنا بحاجة لمعرفة المعنى المراد من كلمة "الإنجيل" الواردة، إضافة إلى طبيعة الوظيفة التي أرسلهم بها:

حيث يظهر بجلاء أن دعوته تلاميذه كانت عبارة عن مجرد الكرازة والوعظ بالإنجيل، وهو بحسب استعمالاته في إنجيل مرقص يدل على البشارة باقتراب ملكوت السماوات، فتكون وظيفة التلاميذ مسانخة لوظيفته نفسه التي تقدم الحديث عنها.

وهكذا تكون وصيته لتلاميذه في آخر حياته منسجمة مع الإطار العام الذي سار عليه خلال دعوته الشريفة، ولا يحصل أي تناف أو تعارض بين مدلولات النصوص الواردة، خلافا للقراءة المسيحية لحقيقة دعوته، والتي لم تنطلق من النصوص المقدسة، بل فرضت مسلماتها وخلفيات رجالها على النصوص المقدسة نفسها.

بقيت نقطة: وهي أنه لماذا طلب من تلاميذه في المرة الأولى أن لا يبشروا بين الأمم ولا بين السامريين، بل كان عليهم أن يحصروا وعظهم في بني إسرائيل، بالإضافة إلى عدم قيامه نفسه بهذه المهمة في غير بني إسرائيل، ثم في نهاية المطاف يأمرهم بالوعظ والتبشير في العالم أجمع.

ولا بد للإجابة على هذا السؤال أيضا من الرجوع إلى الإطار العام الذي تحركت فيه الدعوة، وملاحظة الأجواء التي سادت في تلك الأثناء، بما ينسجم مع طروحات العهد القديم، ولا يتعارض مع دعوته التجديدية.

لذلك نقول: إن دعوة السيد المسيح كسائر دعوات الأنبياء عليهم السلام، لما كانت منسجمة في داخلها، ومتوافقة في مختلف مراحلها وفصولها،- بل ان ذلك من شرائط صدقها- فيجب أن تكون بدايتها ونهايتها على نسق واحد، لجهة الهدف الذي تسعى إليه، فقد ابتدأ دعوته المباركة بقوله: انه أرسل ليكرز بسنة الرب المقبولة، فلا بد من البحث عن المراد بالسنة المقبولة هذه.

لا إشكال في أنه قد كشف عن مراده بهذه السنة الإلهية بطريقة عملية، حيث كان يطوف في المجامع وفي المدن، ليكرز ويبشر باقتراب ملكوت الله تعالى؛ مما يعني أن بداية دعوته، وإشارته إلى الملكوت الموعود، إضافة إلى التزام تعاليم التوراة، التي كانت متوجهة أولا وبالذات إلى بني إسرائيل، كما أسلفنا.

ومن المعلوم أن اليهود لم يكونوا يعظون في الأمم الأخرى، لعدم دعوتهم إياها للدخول في ديانتهم، بل ربما كانوا يعيبون على من يتصدى لهذا الأمر، فكان لا بد للسيد المسيح أن يحصر دائرة دعوته فيهم بأمر الله تعالى، كما يدل عليه قوله "لم أرسل"، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإن اليهود كانوا عبر تاريخهم الطويل، ينتظرون مجيء المسيح الموعود، وقد توقع أحبارهم وكهنتهم قرب مجيئه، لعله يخلصهم مما هم فيه من ذل وهوان وعبودية كانت تظللهم في تلك الفترة من الزمان، ولهذا نراهم في كثير من المواطن قد عبروا عن هذا الأمل، نتيجة أنسهم بالمسيح القادم وانتظارهم له.

فنجدهم تارة يرسلون إلى يوحنا المعمدان، ويسألونه: "من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست أنا المسيح"[٣١].

والتقى بامرأة سامرية، وتحادث معها، فقالت له:"يا سيد أرى انك نبي ..."[٣٢]ثم قالت له أن أنا اعلم أن مسيا الذي يقال له المسيح يأتي فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء[٣٣] ...فتركت المرأة جرتها، ومضت إلى المدينة وقالت للناس هلموا انظروا إنسانا قال لي كل ما فعلت، لعل هذا هو المسيح"[٣٤].

وقد حاول بعض اليهود أن يخطفوه ليجعلوه ملكا عليهم، في محاولة تطبيق النبوءة عليه، ولكنه اختفى، وغير ذلك، مع أنه ظل يقوم ببشارته ووعظه بين بني إسرائيل، وهذا ما يفسر قوله في بداية دعوته "اليوم قد تم...".

وأما طلبه من تلاميذه في نهاية المطاف أن يبشروا بين جميع الأمم، فان ذلك قد حصل بعد إلقاء الحجة على بني إسرائيل، وصار الأمر معروفا بينهم، خصوصا وانه قد حصل بعد حادثة التجلي، أي بعد انتهاء مهمته التبليغية، التي أشار إليها قبل ذلك بقوله: "العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته".

على أنه يمكن أن يستفاد أن المراد بالعالم أجمع في هذه الوصية هو بنو إسرائيل أينما حلوا، دون سائر الأمم، كما يدل عليه قول كاتب إنجيل مرقص: "ثم إن الرب بعدما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله، وأما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة"(٣٥).

وبهذا يتحقق الانسجام والتوافق بين مفردات الأحداث الإنجيلية، ويكون تفسيرها بعيدا عن الخلفيات المسبقة، التي تفرض نفسها على النص، فإن قول المرأة السامرية أنها تعلم "ان المسيح الموعود عندما يأتي سيخبر بكل شيء"، متوافق مع قوله عن البارقليط وروح الحق "بأنه سيقول لهم كل شيء، وأما السيد المسيح فعنده أمور كثيرة ليقولها، لكنهم لا يحتملونها".

والسيد المسيح في هذه الدعوة والكرازة، يكون قد توافق في مضمون دعوته مع سياق التوراة القائل: "يقيم لك إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون، حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع... قال لي الرب قد أحسنوا في ما تكلموا، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه"(٣٦).

وهنا لا بد من ملاحظة المثلية، التي تعني اشتمال دعوته على شريعة وقانون، وهو ما لم يتحقق في دعوة السيد المسيح. بالإضافة إلى أن محاولة تطبيق هذه النبوءة على السيد المسيح، كما فعل كاتب سفر أعمال الرسل لن تنال حظا من النجاح والمقبولية؛ لأن السيد المسيح من بني إسرائيل، والمفروض أن النبي الموعود من وسط إخوتهم، فلم يرد التعبير بالاخوة لبني إسرائيل، وأريد منه أحدهم في اسفار العهد القديم، بل ورد مثل هذا التعبير في أبناء عيسو وأبناء إسماعيل، ولما لم يرد من أي من أبناء عيسو أو غيرهم من ادعى نبوة عامة تبين من ذلك أن النبي الموعود هو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

وبهذا تقع المصالحة والتوافق بين الكتاب المقدس بعهديه وبين القرآن الكريم، ولا يبقى مجال للمخالفة في هذه المسألة الهامة.

وربما تكون محاولة اليهود قتل السيد المسيح (ع) والقضاء على دعوته ناشئة من إيقانهم انه نزع النبوة منهم والملك، وهو ما يفسر قوله (ع) لهم في بداية دعوته "انه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم"، وبقوله لهم: "لذلك أقول لكم أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره"(٣٧)

الهوامش

(١) البقرة ٢١٣ .

(٢) الآية ١٩ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج.

(٤) سفر التكوين: ١/١٢ ـ ٣ .

(٥) سورة البقرة آية: ٢٥٨ .

(٦) يلاحظ كتابنا: صلب المسيح في الإنجيل، ص١٣ وما بعدها.

(٧) لاحظ بالنسبة لمؤلفي العهد الجديد: صلب المسيح في الإنجيل ص١٦ وما بعدها، والك عينه جار في العهد القديم، قال الآباء اليسوعيون: أسفار الكتاب المقدس هي عمل مؤلفين ومحررين عرفوا بأنهم لسان حال الله في وسط شعبهم. ظل عدد كبير منهم مجهولا.

(٨) مدخل إلى العهد الجديد، ص١٣ .

(٩) المدخل إلى الكتاب المقدس ج١ ،ص, ١٥. وقد عالجنا هذه المسألة في كتاب "وعد التوراة لمن يريد قراءة مختلفة في التوراة".

(١٠) العقيدة المسيحية في لقاء مع الاسلام ص٢٩٥ .

(١١) العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام، ص٢٨٩ .

(١٢) إنجيل يوحنا: ٩/٢٠ .

(١٣) إنجيل لوقا: ٩/٢٤ ـ ١١ .

(١٤) إنجيل مرقص: ١٤/١٦ .

(١٥) إنجيل يوحنا: ٣٠/٢٠ ـ ٣١ .

(١٦) إنجيل لوقا: ١٦/٤ ـ ٢١ .

(١٧) إنجيل متى: ١٧/٥ ـ ١٩ .

(١٨) الرسالة الى غلاطية:٢١/٢ .

(١٩) انجيل يوحنا: ٣/١٧ ـ ٤

(٢٠) نفسه: ١٢/١٦ ـ ١٣

(٢١) سورة العنكبوت،آية:٤٨

(٢٢) سورة يونس، آية:١٦

(٢٣) العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام، ص١٤

(٢٤) نفسه: ص١٦

(٢٥) العقيدة المسيحية في لقاء مع الإسلام، ص٢١٦

(٢٦) إنجيل متى: ٢٤/١٥

(٢٧) إنجيل متى: ٥/١٠ ـ ٩

(٢٨) إنجيل يوحنا: ١١/١

(٢٩) إنجيل متى: ١٨/٢٨ ـ ٢٠

(٣٠) إنجيل مرقص: ١٥/١٦ ـ ١٦

(٣١) إنجيل يوحنا: ١٩/١-٢٠.

(٣٢) يوحنا:٩/٤.

(٣٣) يوحنا:٢٥/٤.

(٣٤) إنجيل يوحنا: ٢٧/٤ ـ ٢٩ .

(٣٥) إنجيل مرقص: ١٩/١٦ ـ ٢٠ .

(٣٦) سفر التثنية: ١٥/١٨ ـ ١٩ .

(٣٧) إنجيل متى: ٤٣/٢١ .